لماذا ١

رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي

معجبون كثيرون :

□□ للمستشرقين كثير من المعجبين ، حتى من أصحاب الفكر الإسلامي الأصيل ، فضلاً عن تلامذتهم (المستغربين) وما أكثرهم !

فتجد (المستغربين) يثنون الثناء كله ، على كل ما يصدر عن أساتذتهم ، ويعتنقون فكرهم ، ويدينون برايهم ، ويدفعون عنهم ، ويهتدون بهديهم ، وينسجون على منوالهم .

وتجد أصحاب الفكر الإسلامي ، وذوي الرأي ، لا يخطف أبصارهم بريق أعمال المستشرقين وأبحاثهم ، ويعرفون كيف يقفون من آرائهم موقف الناقد البصير .. ولكن !!

ولكن تجد منهم إعجاباً وثناءً وتقديراً لجهودهم ، ورأيهم ، ودقتهم في أبحاثهم ، واستقصائهم للمصادر والمراجع ، والأخبار والروايات ... إلى آخر هذه الصفات التي يتظاهر بها المستشرقون □□

السبب في ذلك :

والسبب في ذلك هو : ضعفنا نحن لا قوّتهم ، ذلك أن الاتصال بالمصادر الأولى لثقافتنا وعلومنا ، في كتب أئمتنا وسلفنا أصبح أمراً عسيراً ، حيث قُطعنا عنهم أسلوباً ، ولغة ، وفكراً ، فصارت التلمذة لهم أمراً صعباً .

على حين عكف المستشرقون ، على هذه المصادر ، واتصلوا بها ، وراحوا يأخذون منها ما يريدون ، ويوجهونها كيف يشاءون .

فرأيناهم صبروا على ما لم نصبر عليه ، وأطاقوا ما لم نطقه ، وارتادوا ما لم نرتده ، واستَقوا حيث قصر منا الرِّشا ، فظننا بهم خيراً [وهذا والحمد لله من طبيعتنا] لاسيما وهم يخرجون علينا في طيلسان (**الأكاديمية**) وتحت شارة الجامعة .

منهج جدّ خطير :

وفي غمرة الإعجاب ، بقدرة المستشرقين على البحث ودقتهم ، ومنهجيتهم ، صار كثيرون يكتفون بالرجوع إلى كتبهم مستغنين بها

هكذا تكون

بقلم : د. عبد العظيم الديب

عن المصادر الأصيلة ، ومع ما في هذا من خطأ ، إلاّ أنه محتمل ما دام ينسب القول إلى المستشرق بدقة وأمانة ، وإن كان خطره لا حدَّ له في إشاعة الخطأ والبناء عليه .

ولكن الخطر الأكبر الذي يصل إلى حدّ الجريمة في حق المنهج العلمي والعلم ، هو أن يأخذ عن المصادر القديمة بواسطة المستشرقين ، ومع أن أوّليات الأمانة ، وأبجديات المنهج ترفض ذلك ، إلاّ أنه للأسف يحدث !! ويعتمد بعضهم على ذكائه ومهارته في صياغة العبارة بحيث يوهم القارىء أنه رجع إلى الطبري أو ابن الأثير مثلاً ـ مجرد إيهام ـ وتكون العبارة صالحة لأن يراد بها ذلك ، أو أنه نقل ذلك عن فلان .

ليسوا ثقة :

والمستشرقون ـ في كثير من الأحيان ـ ليسوا ثقات ، لأكثر من سبب مثل :

١ ـ العجز عن فهم النص ، فهم مهما برعوا في اللغة ، لا يستطيعون أن يمتلكوا ذوقها وحسّها ، ويحيطوا بمجازها وتطور مدلولاتها .

٢ ـ عدم الإحاطة بالنصوص الواردة في القضية الواحدة ، في أماكن مختلفة ، فمع أنهم يدّعون أن هذا من منهجهم ، إلا أنهم تعوزهم القدرة على ذلك ، خاصة حين يرد النص تبعاً أو استطراداً ، أو بصيغة مجازية بعيدة مثلاً .

٣ ـ الخطأ في التفسير والتحليل ، وهذا غير العجز عن الفهم ، لأن التفسير يحتاج إلى عدة عوامل ، فهمُ النص واحد منها ، فيحتاج مثلاً إلى معرفة بالقضية التي ورد فيها النص ، وتطوّرها ، وصلتها بغيرها ... إلخ .

٤ ـ في بعض (الأحيان) يكون هناك سوء نية ، ومحاولة خدمة أغراض تنصيرية واستعمارية ، فيبدأ من أول الأمر (بالإدانة) ، فيبحث عن النصوص التي يمزقها ، ويلفقها ، ويلوي أعناقها ، ويقلبها ، حتى تثبت ما يريد ، وهكذا ...

واحدة من سقطاتهم :

يعتبر (فان فلوتن) أحد المستشرقين المعنين بالتاريخ الإسلامي ، خاصة فترة الأمويين والعباسيين ، وتستطيع أن تجد اسمه يتردد في كثير من الكتب الجامعية ، وهو يغريهم بما ينسبه إلى الطبري ونحوه ، ويعزوه إلى المصادر الأصيلة ، فيخيل إلى الدارس أو الباحث أنه أتى بطلبته من منبعها ، وهذه صفحة من كتابه تبين كيف يخون المنهج ، ويعتدي على النص !!

« السيطرة العربية » :

(لفلوتن) كتاب بهذا العنوان ، ترجم مرتين إلى اللغة العربية ، مرة سنة ١٩٣٤م ، والثانية سنة ١٩٨٠م ، وعلى ما في الكتاب من سموم خبيثة سنكتفي بعرض صفحة واحدة منه ، ثم نرى ما وراءها من أخطاء وأخطار .

الهدف من الفتوح :

بإيجاز شديد ، وعبارة مركزة ، يسوق المؤلف رأيه في الفتوح الإسلامية ، وأثرها في المجتمع ، مؤكداً أنها كانت بالدرجة الأولى من أجل الغنائم ، فأدت إلى ثراء فاحش ، فأفسدت المجتمع وأترفته ، وأغرت المسلمين بالمزيد من الفتوح ، للمزيد من الغنائم ، والجزية ، وهذه عباراته بنصها تقريباً :

« ... إن الانانية ، وكذلك الجشع ، سرعان ما استأثرا بالقلوب بعد وقت قريب ، وغمر رجال الصحراء ترف غير عادي ، انصب عليهم من كل ناحية ، مما كان له اثره في إفساد النفوس اكثر من تهذيبها .

ولقد اصابت الاسر المرموقة في الكوفة ثراءً فاحشاً ، كان مصدره (الغنائم) والاعطيات السنوية (المخصصات) ، ولقد فرضت حالة الترف المتصاعدة هذه تغطية دائمة لمواجهة متطلبات جديدة ، واللجوء إلى الاستدانة كطريقة فذة من اجل إشباع رغباتهم ، فمهد ذلك السبيلَ إلى مؤامرات ، على غرار ما حدث في روما ، حيث باتت الثورة ضرورية ، مع اللجوء إلى إرضاء المرابين ، واتخاذ الاضطرابات ذريعة للاستيلاء على بيت المال ونهبه .

على ان طريقة اكثر سهولة وشرفاً من ذلك ، هي الجزية والحملات العسكرية ضد الكفار ، وغالباً ما كانت تاتي هذه الأخيرة تلبية لرغبات القادة ...

... ولكن غالباً ما كانت عائدات الغنائم (باستثناء الخُمس المخصص لبيت المال) سبباً في غزوات لم يكن لها ما يسوّغها في بعض الاحيان .

دراسات المستشرقين !!

هكذا تكون دراسات المستشرقين !!

وما يسمى بفتوحات يزيد بن المهلب لم تكن في الحقيقة سوى حملات من الإرهاب او قطع الطرق ضد شعوب لا تبغي سوى السلام » (ص٦٧ ، ٦٨) .

ولا يعنيني هنا هذا التهجم الذي ليس في حقيقته إلّا سباً وشتمًا ، وإنما يعنيني ما أسنده إلى المراجع ، خاصة الطبري ، ففيه لَيٌّ لأعناق النصوص ، واستكراه غريب في فهمها وتفسيرها .

ويكفي مثالاً لذلك قوله : **« إن حالة الترف المتصاعدة ألجأت إلى الاستدانة كطريقة فذّة من أجل إشباع رغباتهم »** ثم يسند ذلك إلى **الطبري : ٢٨١١/١** ، وتراجع الصفحة التي أشار إليها ، فلا تجد فيها خبراً عن استدانة سعد بن أبي وقاص من بيت المال بالكوفة ، **وكان خازن بيت المال عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنهما ، وكان سعد والي الكوفة ، فاستقضى عبد الله بن مسعود سعداً ، واستمهله سعد فلم يقبل ، وكان بينهما تلاوم ، ووصل إلى عثمان بن عفان رضي الله عنهم جميعاً ، فلامهما معاً ، على ما كان بينهما من تلاوم ، وعزل سعداً .**

هذا ما ذكره **الطبري** في هذا الموضع ، فكيف يفهم منه أي قارىء ، بل باحث ضليع ، يقتعد مقعد الأستاذية ؟!! كيف يفهم من هذه القصة أن الاستدانة قد صارت ظاهرة في المجتمع ؟!! وأنها أصبحت وسيلة لإشباع الترف الذي شاع فيه ؟ كيف يفهم هذا ؟ وبأي منطق يقال هذا ؟ وأي ترف كان في مجتمع الكوفة سنة ٢٦هـ !!!

ثم لو نظر إلى هذه الحادثة بعين مجردة ، ودون تعمق ولا (منهج بحث) ولا ، ولا . . . ألا يجد فيها فخراً للإسلام والمسلمين ؟ ، ألا يرى كيف لم يستطع الحاكم (والي الكوفة) أن ينال من مال الجماعة إلّا قرضاً ؟ ثم كيف كانت أمانة خازن بيت المال الذي لم يسعه السكوت عن (الوالي) واصطناع يدٍ عنده ، بالتأجيل فقط (لا بالتنازل) ؟ ثم ألا يرى تلك الحرية التي وسعت موظفاً (صرافاً) أن يلاحي الأمير ويعنف عليه ؟؟

ثم ألا يتبادر إلى الذهن أن الحاجة والفاقة هي التي ألجأت سعداً إلى الاستدانة ؟ وهذا هو الواقع !! ففيم كان يستدين سعد في ذلك الوقت ؟؟ وفي أي مجالٍ كان ينفق في ذلك الحين ، وقد كانوا يعيشون عيش الكفاف !

ثم لو مدَّ بصره قليلاً ، لقرأ في الأسطر التالية بقية القصة ، وكيف أن سعداً رفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم رب السموات والأرض . . . فقاطعه عبد الله بن مسعود ، قائلاً : **ويلك !! قل خيراً ولا تلعن .**

وخاف أن يدعو سعد عليه ، فقال سعد عند ذلك : **أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك !!! كلمات تقطر تقوى ، وتندى بالحب والإخاء ، ومواقف تنطق بالطهارة والتعفف والتنزه .**

ولو قرأ بقية الصفحة لوجد أن الأمير الذي تولى بعد سعد على الكوفة ، مكث خمس سنين وليس على داره باب .

فأي ترف ؟ وأي استدانة ؟ . . .

وهو يسند كل جملة تقريباً من كلامه ، ويضيفها إلى مرجع من المراجع الأمهات ، ولكن بهذه الطريقة نفسها ، وأنكى .

وإذا قال قائل : لا تعجل ، ولا تسرف على الرجل باللوم ، فإن أمر تفسير النصوص ، والاستنتاج منها فسيح المجال ، ولا حرج على الرجل إذا أخطأ ، أو اشتط !! فالخطأ حق من حقوق الإنسان .

مع أن هذا اعتذار غير مقبول ، إلا أنني أقدم أنموذجاً آخر ، من الصفحة نفسها فيه ما لا يمكن الاعتذار عنه .

مثـــــال آخـــر :

قال : **« ولعل ما حدث في سمرقند يعتبر مثلاً صارخاً لهذا النوع من (الفتوح)** [يقصد فتوح السلب والنهب من أجل الترف الذي وقعوا فيه] ، **فقد استسلمت هذه المدينة على إثر معاهدة أبرمتها مع سعيد بن عثمان ، مقابل دفع سبعمائة ألف درهم ، وتقديم ألف من سكانها رهائن .**

ثم استولى عليها قتيبة بن مسلم في وقت لاحق (حسب الرواية العربية) [كذا] وطرد أهلها ، واحتل جنوده منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق » ا.هـ بنص حروفه من ص٦٨ .

والحق لقد فزعت حين قرأت هذا الكلام ، لا من حدوث مثل **هذه الشناعة من القادة المسلمين ، فمعرفتي بتاريخ أمتي ، والروح الذي سادته ، يجعل ذلك لا يخطر لي ببال ، ولكن فزعي من أن يصل الأمر في الاجتراء والافتراء إلى حد أن ينسب هذا إلى جيش المسلمين ، « ويضرب مثالاً صارخاً للفتوح ، التي لا باعث لها إلا السلب والنهب » .**

والرجل كعادته يسند ظهره إلى المصادر والمراجع ، وقد اختار شيخ المؤرخين **الطبري** لينسب إليه هذا الكلام .

فلننظر ماذا في الطبري ؟ وماذا في هذا الكلام من افتراء ؟ :

(أ) أضاف قوله : **إن سمرقند استسلمت لسعيد بن عثمان إلى الجزء الثاني ص١٢٤٥ ، ١٢٤٦ .**

وليس في هاتين الصفحتين خبر عن سعيد بن عثمان ، وإنما فيها خبر عن فتح **قتيبة** لسمرقند ، والذي سيأتي ذكره ، وبينه وبين فتح سعيد بن عثمان لها نحو سبع وثلاثين سنة ، وذلك وارد في الجزء الثاني ص١٧٨ ، ١٧٩ .

ونترك هذه دون تعليق !!!

(ب) ذكر أن **سعيد بن عثمان عاهد أهل سمرقند على دفع** سبعمائة ألف درهم ، وتقديم ألف من سكانها رهائن ، وأسند ذلك أيضاً إلى **الطبري** ، الموضع السابق نفسه الذي وهم فيه .

والذي في الطبري بنصه **« خرج إليهم سعيد بن عثمان ، وناهضه الصُّغْد [أهل سمرقند] فقاتلهم ، فهزمهم ، وحصرهم في مدينتهم ، فصالحوه ، وأعطوه رهناً منهم خمسين غلاماً يكونون في يده من أبناء عظمائهم » ا.هـ بنصه .**

فليس فيه ذكر لمبالغ من المال أصلاً ، لا سبعمائة ألف ، ولا سبعة آلاف .

وأما الرهائن فهم خمسون ، فكيف صارت ألفاً ؟؟

هكذا خطأ في العزو ، لا أدري له سراً ! ، ثم تحريف في الأرقام والأعداد !! ، أليس الفتح لنهب الأموال وقطع الطرق ؟ فإذا لم تذكر المصادر أنه أخذ مالاً ، فليتبرع هو بالمال للجنود (المترفين الذين هم في حاجة إلى المال) وأما الرهائن فلست أدري الهدف من زيادة عددهم ، من خمسين إلى ألف !!!

(جـ) ذكر أن قتيبة بن مسلم استولى على سمرقند في وقت لاحق ، وطرد أهلها ، واحتل جنودُه منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق ، وأضاف ذلك إلى الطبري وغيره من المصادر ، وسماها (الرواية العربية) .

ونجد هذا في الطبري ، في الموضع الذي عزا إليه خبر فتح سعيد بن عثمان .. فلعل هذا سبق قلم !! ولكن يبقى أن نسأل :

من أين أتى بأن أهل سمرقند كانوا ملتزمين بالمعاهدة التي أبرموها مع سعيد بن عثمان ؟؟

وسأذكر هنا نص الطبري بحروفه ، وليس لي فيه إلا الاختصار فقط :

● جاء في جـ٢ ص١٢٤٢ « ... وخطب قتيبةُ الناس فقال : إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقتٍ الغزوُ فيه ممكن ، وهذه السُّغْد شاغرة برجلها [السغد أهل سمرقند ، وينسب إليهم الإقليم الذي عاصمته سمرقند] قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، منعونا ما كنّا صالحنا عليه (طَرْخون) [اسم قائدهم حاكم سمرقند] ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ... ﴾ ، فسيروا على بركة الله ، فإني أرجو أن يكون خوارزم ، والسُّغْد ، كالنضير وبني قريظة ، وقال الله تعالى :

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ .

ويلاحـــظ :

١ ـ أن النص على نقض العهد من أهل سمرقند ، واضح صريح ، لا يحتمل أي تأويل .

٢ ـ بفهم أنهم غدروا بقائدهم (طَرْخون) ، لأنه لم يوافقهم على نقض العهد .

٣ ـ تشيع في الخطبة كلها روح الجهاد ، واللجوء إلى الله ، والالتزام بآداب الجهاد في الإسلام ، وليس فيها روح (الجري وراء الغنائم ، ولا قطع الطريق) .

● وفي صفحة ١٢٤٩ من الجزء الثاني :

« ... فقال قتيبة [لقواده بعد المعركة] : جزاكم الله عن الدين والأعراض خيراً ... وطلب أهل سمرقند الصلح ، وعرضوا الفدية ، فأبى وقال : أنا ثائر بدم (طَرْخون) ، كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي » .

● وفي الصفحة نفسها جاء في وصف المعركة ، واستماتة أهل سمرقند في الدفاع عنها :

« أطال قتيبة المقام ، وثلمت الثلمة في سمرقند [أي في سور المدينة] ، فنادى منادٍ فصيح بالعربية يشتم قتيبة ...... فمكثنا طويلاً ، وهو مُلح بالشتم ... وسُمع قتيبة يقول ، كالمناجي لنفسه : حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان ؟؟ » .

● وفي الصفحة ١٢٥٠ من الجزء نفسه :

« ودخلوا سمرقند ، فصالحوهم ، وصنع (غوزك) [ملك سمرقند] طعاماً ، ودعا قتيبة ، فأتاه في عدد من أصحابه ، فلما تغدىٰ استوهب منه سمرقند ، فقال للملك : انتقل عنها ، فانتقل عنها ، وتلا قتيبة :

﴿ وَأَنَّـهُ أَهْلَكَ عَاداً ٱلْأُولَىٰ ، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ .

ونستطيع عند النظر إلى هذه النصوص ، أن نرى ما يلي :

١ ـ وضوح الهدف الذي يقاتل من أجله المسلمون ، الدين والأعراض ، كما جاء في دعاء قتيبة لرجاله ، وثنائه عليهم .

٢ ـ الوفاء بالعهد ـ لا الغدر به ـ فيرى أن في قتاله أهل سمرقند ثأراً لحاكمها السابق (طَرْخون) الذي قتلوه ، فهو يقول : « أنا ثائر بدم طَرْخُون . كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي » .

٣ ـ إن سمرقند قد أكثرت الشقاق ، والعناد ، والغدر ، وهذا واضح من مناجاة قتيبة لنفسه قائلاً : « حتى متى يعشش فيك الشيطان يا سمرقند ؟؟ » .

٤ ـ سماحة قتيبة والمسلمين ، وحفاظهم على العهد ، فمع ضراوة المعارك واستنفار (غوزك) حاكم سمرقند للأقاليم المجاورة ، واشتداده على المسلمين ، كما هو واضح تمام الوضوح في الطبري ، مع هذا نجد المسلمين يقبلون دعوة (غوزك) على الغداء ، بعد أن أمنوه على نفسه ، وكل من معه ، لدرجة أنه طمع في أن يسلّموا له المدينة ثانية ، لما رآه من حلمهم وحسن معاملتهم ، فلما استوهبها من قتيبة ، رفض وأمره بالانتقال عنها ، حتى لا تتكرر مأساة الغدر ، والقتال ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

بم نسمي هـذا ؟!

والآن هذه نصوص الطبري ، بوضوحها وصراحتها ، وهذا ما يمكن أن نراه منها ، فكيف تعامى عنها (فلوتن) ؟ وكيف رأى منها أن قتيبة ، طرد أهلها منها ، واحتل جنوده منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق ؟

بم نسمي هذا ؟؟ .. لا أدري ، ولكن فقط أضعه أنموذجاً لسوء عمل هؤلاء ، وعدوانهم على الحقيقة ، والعلم ، ليرى ذلك المخدوعون من أبنائنا ، وليرى ذلك الباحثون ، فيعلموا أن أقوال هؤلاء ودراساتهم في حاجة دائمة إلى التمحيص والتدقيق ، قبل أن نعتمد عليها ، ونتخذها مراجع ومصادر لكتاباتنا .

وأما تاريخ أمتنا ، فما أقسى ما تعرض له من تشويه وجَلْد ، وصلب ، ومن له برجال ينذرون أنفسهم لإعادة كتابته ؟ لا يضنون بوقت ولا جهد ، ولا ينتظرون جزاءً ولا شكوراً إلّا من الله سبحانه .